ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

مراجعة كتاب " ست سنوات من الإقامة في الجزائر"

"Review of the book "Six Years Residence in Algiers

د. محمد الأمين بوحلوفة

جامعة أحمد زبانة غليزان

majrit711@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2024/07/24 تاريخ القبول: 2024/09/15 تاريخ النشر: 2024/12/01

ملخص:

" ست سنوات من الإقامة في الجزائر" هو كتاب يندرج ضمن أدب الرحلة والمشاهدات، كُتب على يد إليزابيث بروغتون التي أقامت في الجزائر في أوائل القرن التاسع عشر. يقدم الكتاب وصفًا تفصيليًا للبنية السياسية، والعادات الاجتماعية، والحياة الاقتصادية، والعلاقات بين الحكام العثمانيين والسكان المحليين والقوى الأوروبية. يكشف عن تعقيد الوضع السياسي في الجزائر كإيالة عثمانية شبه مستقلة، ويتناول دور القرصنة والدبلوماسية، والصعوبات التي واجهها الأوروبيون في المنطقة. يُعد هذا العمل مصدرًا مهمًا لفهم المجتمع الجزائري قبل الاستعمار، وإن كان من منظور أوروبي متأثر بذهنية استعمارية.

الكلمات المفتاحية: ست سنوات من الإقامة في الجزائر، أدب الرحلة، إليزابيث بروغتون ، القرصنة، الدبلوماسية.

Abstract:

in Algiers during the early 19th century. The book provides a detailed description of the political structure, social customs, economic life, and the relationships between the Ottoman rulers, local inhabitants, and European powers. It reveals the complexities of Algeria's political situation as a semi-autonomous Ottoman province, discussing the roles of piracy and diplomacy, as well as the challenges faced by Europeans in the region. This work serves as an important source for understanding pre-colonial Algerian society, albeit from a European perspective influenced by a colonial mindset.

Keywords: Six Years of Residence in Algeria, Travel Literature, Elizabeth Broughton, Piracy, Diplomacy.

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

المقدمة:

بينما كان الأمير عبد القادر يطبق حصاره على قصر عين ماضي في صيف 1839م ، صدر كتاب عن الجزائر في لندن، بعنوان"**Six Years Residence in Algiers ست سنوات من الإقامة بالجزائر**" لصاحبته إليزابيث بروغتون بلانكلي. في تلك الفترة لم يكن الجمهور البريطاني يعرف الكاتبة بقدر ما كان يعرف الجزائر وهذا عبر متابعته مسار الحرب بين الأمير وفرنسا في الصحف، خاصة وأن الدعاية البريطانية حاولت التقليل من قوة فرنسا الإمبراطورية، لدرجة عجزها عن هزيمة جزائري ثائر ضد الاحتلال. لهذا كان توقيت صدور الكتاب مهما جدا ليعرف البريطانيون الجزائر العثمانية أو الثلاثين سنة الأخيرة من وجود الأتراك بالجزائر.

يعيد كتاب " ست سنوات من الإقامة بالجزائر" سردا تاريخيا لأوضاع الجزائر من زاوية مختلفة تماما عن جميع المصادر المحلية والفرنسية التي كتبت عن تلك الفترة، كونه صدر عن طرف لم تتضح مواقفه السياسية الحقيقية من الاحتلال الفرنسي للجزائر، أو الضبابية المتعمدة للبريطانيين عشية الاحتلال، خاصة إذا وضعنا جهود القنصل البريطاني سان جون عشية الاحتلال، فالأخير لعب دور الوسيط في المفاوضات بين داي الجزائر حسين وقائد الحملة الفرنسية دي برومون، وأعطى ضمانات صريحة للداي على سلامته وسلامة ممتلكاته[1].

الكاتبة إبنة قنصل

على مرّ الفترة التي تداول فيها قناصل بريطانيا على منصب الممثل الدبلوماسي لجلالة ملك بريطانيا في الجزائر، من 1582 لغاية 1842م[1] لم يكتب أيّ منهم مذكرات[1] شخصية عن الجزائر العثمانية، ما عدا التقارير الرسمية والسرية التي تم إرسالها إلى لندن، فهذا الكتاب محلّ الدراسة يعد سابقة، خاصة وأنّ ابنة القنصل اليزابيث[1] اعتمدت على مخطوطة والدتها التي عُدّت الأصل، بالإضافة إلى مشاهداتها أو ما عاشته في فترة خدمة أبيها من 1806 لغاية 1812م. على الرغم من صغر سنها إلا أن الكاتبة احتفظت بأحداث ووقائع دونتها لتكون صورة عن الجزائر في فترة كان حكم الأتراك على شفا الانهيار بسبب حركة الانتفاضات الريفية (ثورة درقاوة)[1] في بايلك الغرب لولا وساطة المغرب التي أنقذته. يمكن تقديم بورتريه موجز عن إليزابيث بروغتون الابنة الأولى للعقيد هنري ستانيفورد بلانكلي من زوجته الثانية ماري ريتشاردز. كان عمرها ست (06) سنوات لما جاءت عائلتها لمدينة الجزائر أي سنة 1806م، ما يرجح سنة ميلادها بـ1800م مثلما ذكرتْ ذلك، وقد تلقت تعليمها الأول على يد والدتها حسب إليزابيث نفسها في مواضع كثيرة من الكتاب. بعد انتقال العائلة لفرنسا ووفاة والدها، تزوجت إليزابيث من رجل يدعى إدوارد بروغتون في 29 يونيو 1831م بكنيسة السفارة البريطانية في

باريس وأنجبت طفلاً. والذي أشارت له أثناء كتابتها لمذكراتها عندما تحججت بضيق الوقت المخصص للكتابة بسبب مشاق تربية ولدها. بقيت مع زوجها الذي أصبح مديرًا لأكاديمية مشهورة في إدنبرة[1].

أهمية الكتاب

كما أشرت أن الكتاب يطرح سردا جديدا عن الجزائر في الفترة العثمانية، وهو إضافة للمشتغلين عن العهد العثماني بالجزائر، وهذا للمواضيع التي يطرحها، ويمكن إيجازها:

-من حيث مضمونه، فإن مذكرات القناصل الأوربيين تسهم في سد الثغرة ضمن حقل الدراسات العثمانية، خاصة وأن الباحثين المغاربيين[1] لا يعتمدون على تلك المصادر، بسبب عائق اللغة (انجليزية، اسبانية، ايطالية ...الخ)، فمثل هكذا مصادر تعيد إظهار جانب غير معروف في الفترة العثمانية، خاصة وأن مضمونها يتوزع بين السياسي والاجتماعي والثقافي، ويتعدى إلى الاقتصادي.

-من حيث الفترة، فالكتاب يغطي ست سنوات من الفترة العثمانية الأخيرة في الجزائر (1806-1812م) ، وهي فترة عرف فيها نظام الحكم عدة هزات، سواء داخلياً عبر الانقلابات العديدة والمتكررة التي كان الجيش والديوان ضالعا فيها، أو خارجيا والتي تمثلت في الانتفاضات التي قادتها الطرقية مثل درقاوة والتيجانية، كل ذلك يعطي للكتاب ميزة خاصة.

-كذلك الكتاب يعطي إضافة تاريخية تنطوي على بناء رؤية جديدة عن الجزائر في الفترة العثمانية، عبر مذكرات أجنبية متعددة اللغات يمكن قبولها ضمن الطرح المغاير للرواية الكلونيالية الفرنسية عن الفترة العثمانية في الجزائر.

مضامين الكتاب

مع مقدمة الترجمة العربية والملاحق، فإن الكتاب يتوزع على ثلاثة وعشرون فصلا على طريقة كتابة المذكرات واليوميات في فترة القرن 19م، كما أن الكتاب في نسخته الأصلية لا يحوي على مقدمة خاصة بالكاتبة أو دار النشر.

بداية قدمت الكتاب تحت عنوان" مقدمة المترجم"، إذ بدأت بالتعريف بالكتاب في نسخته الأصلية وحيثيات العمل عليه وصولا لنشره في لندن، وأسباب اختيار توقيت نشره في تلك السنة. بعدها انتقلت إلى القنصل هنري بلانكلي فأوجزت له تعريفا، كما تطرقت إلى أهم المناصب التي شغلها قبل أن يعين قنصلا عاما في الجزائر. ضمن المقدمة أيضا تطرقت إلى العلاقات الجزائرية البريطانية قبيل تعيين هنري بلانكلي، وكيف استطاع الأخير إعادة إنعاش العلاقة بين البلدين عن طريق افتكاك الامتيازات التجارية الخاصة باستغلال حصن

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

الباستيون والتجارة الحصرية مع بونا[1]، التي كان بحوزة الفرنسيين لقرون، وهي التفاصيل الحصرية التي لا توجد إلا في هذا الكتاب.

كذلك عرضت مشروع القنصل المتمثل في احتلال الجزائر من طرف بريطانيا، وهي رواية مجهولة في تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية، خاصة وأن القنصل رسم خطة إنزال القوات البريطانية في سيدي فرج، وهو نفس مكان إنزال الفرنسيين أيام الاحتلال. في الأخير ختمت المقدمة بموضوع لازال يفتقر للدراسة وهو دور اللوبي التجاري اليهودي في الجزائر خلال الفترة العثمانية[1]، حيث أشرت لنشاط هذا اللوبي في ضرب مصالح بريطانيا بالجزائر وكيف تعامل معه القنصل، بالإضافة إلى روح الإنسانية التي تحلى بها القنصل مع طائفة اليهود في مدينة الجزائر.

بالعودة إلى فصول الكتاب، فإنها تطرح مجموعة من العناوين يمكن تلخيص مضمونها في وصول القنصل لمدينة الجزائر في أكتوبر 1806م واستقباله من طرف الداي، وكيف امتنع القنصل عن تقبيل يد الداي[1] وهو البروتوكول الذي كان متبعا آنذاك، ولعل هذا يؤشر إلى بداية سياسة جديدة اتبعها الأوربيون لرفض كل أشكال الانصياع للجزائريين. في الفصل الثاني تتعدد المواضيع من السياسي إلى الاجتماعي، لكن المميز كان علاقة السلطة الحاكمة بطائفة اليهود، حيث تذكر الكاتبة كيف تم تصفية زعيم الطائفة اليهودية " بكري"، خاصة وأن الأخير تدخل في شؤون الحكم و"التي أهلكت اليهود الأثرياء «ليموتوا هكذا» لكن مما لا شك فيه أن الرأي العام انزعج فيما تعلق بالدوافع الحقيقية لمقتله وما تلاه من مصادرة كنوزه الضخمة"[1]. كذلك في الجانب الاجتماعية وصفت الكاتبة طقوس رمضان وعيد الفطر وبعض الاحتفالات التي كان الداي يقيمها على شرف القناصل الأوربيين منها عروض "المصارعة والتدافع"[1].

لعل المميز في الكتاب كما أشرت سابقا أنه أحتوى على تفاصيل الاتفاق التجاري بين الجزائر وبريطانيا[1]، حيث حظي القنصل البريطاني بهذا الاتفاق على الرغم أنه لم يطالب به، الأمر الذي يدعو إلى استنتاج أن السلطة كانت ترغب في تأديب فرنسا عن طريق الغاء عقد الامتياز، ومنحه لخصومهم البريطانيين. كذلك من بين الإشارات التي تدل على إفلاس خزينة السلطة هو تقديمها طلب الاقتراض من البريطانيين لتموين الحرب ضد تونس وهو الطلب الذي لم يرفضه البريطانيون."فقد أعرب الداي عن شكره للقرض الذي قدمه نائب القنصل إسكوديرا في عنابة والذي صرفه في رواتب الجيش ضد تونس، كما تعجب لمقولة الداي «تحيا إنجلترا » [1].

على مستوى الاجتماعي نرى كيف تكتمت السلطة عن وباء الطاعون، وعاقبت كل من يشيع خبره بين الناس إلا بعد أن يسمح الداي للمرابط بذلك. "...عادة ما يمر شهر حتى يذهب «المرابط» ويبلغ الداي بناء على إرادته وسروره وأن يجعل هذه المعرفة عامة، بعدها فقط يمكن التحدث والإفلات من العقاب"[1] .

تطرق الكتاب أيضا للعلاقة الجزائرية الإسبانية، إذ أشارت الكاتبة إلى الرسائل التي وصلت إلى الداي من طرف ملك إسبانيا[1]. على المستوى المغاربي سرد الكتاب العلاقة بين الجزائر وتونس والحرب التي دارت بين الإيالتين، وكيف سعى النظام في الجزائر لتعيين وريث الباي السابق بعد هروبه للجزائر، وهي وقائع لن نجدها إلا في هذا الكتاب. بالإضافة إلى العلاقة الجيدة مع المغرب، إذ زار ابن الملك الجزائر "فهو شاب ذو منزلة رفيعة وغني"[1].كما تناولت أيضا زيارة أميرة طرابلس والتي قدمت بعض الهدايا للداي . "فالسيدة هي ابنة أخت باشا طرابلس، ويضم جناحها أكثر من مائة شخص. أرسلت من الشاطئ هدية للداي، اثنان وثلاثون فردا من الجنس الجميل المعروف، وهذا العدد كان من العبيد الإناث السود"[1]. في الفصول اللاحقة تنوعت مواضيع الكتاب ولعل من أبرز ما ذكره هو طريقة افتداء الأسرى البرتغاليين الذين إطلاق سراحهم بسبب "معاهدة السلام بين البرتغال والجزائر"[1]. مصير عائلة الداي أحمد باشا بعد مقتله، فقد تم تجريد تلك العائلة من ممتلكاتها[1] وهي طريقة كانت متبعة عند السلطة. كذلك جانب من الاضطهاد الذي عانت منه الطائفة اليهودية، فالكاتبة أظهرت صورة اليهود وكيف كانوا يحتمون بمبنى القنصلية البريطانية"...طلبوا ملاذاً تحت الحماية البريطانية، كان المنزل ممتلئا بهم"[1]، خاصة وأن السلطة كانت تستعملهم كصمام أمان ضد الجماهير المنتفضة. لم يغفل الكتاب مسألة العلاقة بين الجزائري والتركي التي غذتها الكراهية، فقد جاءت عدة أمثلة على ذلك عن مهانة الجزائري أمام التركي لدرجة أن يتعدى ذلك إلى القتل دون محاسبة[1]. آخرا وليس أخيرا تطرق الكتاب إلى ظروف مغادرة القنصل وعائلته الجزائر[1] بعدما تم تعيين قنصل جديد.

احتوى الكتاب على أربعة ملاحق[1]، أشارت إلى بعض المواضيع مثل الرسالة التي بعثها القنصل إلى شركة الحديد في لندن بمناسبة تحريره لأسرى الشركة، كما تطرق ملحق آخر إلى سجن مدينة الجزائر والمعاملة التي تلقاها بعض السجناء المحليين من البلاد، في فترة الداي حاج علي. هذا الملحق سرد بالتفصيل الممارسات البشعة للداي في حق فتاتين بالإضافة إلى تفاصيل اغتياله على يد عبده. أما الملحق الثالث والرابع فتناول مميزات منطقة القالة ومدينة بونا وأهميتها التجارية بالنسبة لبريطانيا في حالة استغلالها، وهو تقرير[1] أعدّه نبيل بريطاني مقيم في مدينة بونا.

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

المصادر الإنجليزية وتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية

ربما التمايز بين المدرسة الأنجلوسكسونية والفرنسية حول تاريخ الجزائر يظهر في الآراء التي طرحها الإنجليز، خاصة المتعلقة بالفترة العثمانية والمرحلة المبكرة من الاحتلال. حيث سعى نخبة من الضباط[1] الفرنسيين إلى كتابة وقائع الأحداث وفق رؤية أحادية بعيدة عن الموضوعية، خاصة وأنّ ظروف الاحتلال جاءت في سياق داخلي متوتر بين المعارضة من جهة والملك شارل العاشر من جهة، لهذا ستشهد جلُّ الكتابات تحريفات كبيرة خاصة في مسألة التقارير الرسمية التي كانت ترسل إلى باريس حول تطورات الحرب، إذ يورد المؤرخ سانت ماري دليلا على تزوير تلك التقارير عندما يقول: تقاريره على حسب مزاج الإمبراطورية، لأنها لا تكشف أبدًا الخسائر الحقيقية للفرنسيين ...في هذا الصدد، فإن النشرات العسكرية[1] الإنجليزية مثيرة للإعجاب، لأنها دائمًا ما تقول الحقيقة.

كذلك كان رأي الاسكتلندي توماس كامبل عندما زار الجزائر سنة 1834 م معاكسا تماما لطرح المؤرخين الفرنسيين لقضية الاحتلال وتفاصيلها حيث قال: " ...المؤرخين الفرنسيين التافهين، الذين شوهوا تاريخ الأحداث بأكملها"[1]. هذا الشاهد يدل كيف كان المؤرخون الفرنسيون يحرفون الوقائع وفق رؤيتهم الاستعمارية، لهذا فتاريخ الجزائر في فترة القرن 19م ذو الوجه الواحد قُدّم للباحث والقارئ وفق قالب كولونيالي، ما يجعل المصادر الإنجليزية والتقارير الرسمية والمذكرات، تعيد طرحه بصورة مغايرة تماما، ما يدعونا للبحث فيها وترجمتها بما يخدم سردية التاريخ الجزائري، والمغاربي.

خلاصة

يعدُّ هذا الكتاب إضافة في حقل المصادر التي سردت تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية، كونه جاء بالإنجليزية، ومن فئة دبلوماسية خبرت السلطة في مدينة الجزائر والمجتمع، وأعطت صورة مغايرة تماما عن الوضع آنذاك، لكن في المقابل نلمس أنّ هذه المصادر شبه مغيبة في الدراسات التاريخية المغاربية، لعائق اللغة من جهة وتبعية الباحث للمدرسة المحلية المعربة أو المفرنسة، ما يجعل هاته المصادر غير معروفة تماما، لهذا وجب على الباحث اليوم أن يعيد توجيه بوصلة البحث نحوها بشيء من إعادة القراءة والترجمة، لتكوين صورة جديدة عن تاريخ الجزائر وتاريخ المنطقة المغاربية.

المراجع:

- اليزابيث بوغتون بلانكلي، ست سنوات من الإقامة بالجزائر، ترجمة محمد الأمين بوحلوفة، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2023.

-توماس كامبل ، رسائل من الجنوب، ترجمة محمد الأمين بوحلوفة، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2024.

- توللي، عشرة أعوام في طرابلس1783م-1793م، ترجمة عبد الجليل الطاهر، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي،1967م.ط1

- محمد الأمين بوحلوفة، المكانة الاقتصادية للإقليم القسنطيني لدى بريطانيا العظمى أواخر الحكم العثماني، قراءة في تقرير سرّي مقدم للقنصل البريطاني بالجزائر، دراسات، مجلد 13، عدد 01،(2022)،ص95-105

- Robert Lambert Playfair. *The Scourge of Christendom: Annals of British Relations with Algiers Prior to the French Conquest*. Smith, Elder & Company, 1884

- Schreier Joshua. *The merchants of Oran : a Jewish port at the dawn of empire*. Stanford University Press, 2017.